الفصل 5

الرغبة الرقمية

استكشاف الجنس، و/ أو استغلال الجنس

0110110100110111010110001010011101
01101011010111011
10110110
1011011111011011011101
1011111110110101

- التربية الجنسية الافتراضية الحقيقية.
- الممارسة الجنسية الرقمية: تنوع الجنس الإلكتروني.
- تعميم الإباحية.
- تجارة الجنس الرقمية.
- ما مدى غرابة الفضاءات الإلكترونية؟ الممارسات الجنسية البديلة في الفضاءات الإلكترونية.

إن تأثير شبكة النت في التوجهات والممارسات والمعرفة الجنسية يمكن أن يُوفِّر لنا دراسة حالة واضحة عن مدى ارتباط المعرفة الثقافية على الإنترنت بالعالَم خارجه. صحيح أن الجنس موضوع مكلف بصفة خاصة، وأنه لا يمكن اتخاذه نموذجًا لأيِّ نوع آخر من التأثيرات، بيد أن زخم الموضوع وانتشاره جعله أحد أكثر الموضوعات خضوعًا للدراسة، ثم أكثرها قابلية للاستكشاف. وقد أشار بعض الدارسين إلى أنه لا يوجد أيٌّ من جوانب الحياة المعاصرة أثَّرت فيه شبكة الإنترنت، هذا القدر من التأثير العميق أكثر من الممارسات الجنسية.

من الصعب جدًّا قياس قدر المحتوى الجنسي على شبكة الويب بدقة، وفي بعض الأحيان، تَبيَّن وجود مبالغة شديدة في تقديره (ثبت أن التقارير التي ذكرت أن ثلث المواقع على الإنترنت مواقع إباحية -مثلًا- كانت تبالغ مبالغة شديدة؛ إذ لم تزد نسبتها عن 4% أو 5% (Ogas and Gaddam, 2011; Ruvolo 2011). وبالرغم من ذلك، فإن كَمَّ المواد الجنسية على شبكة الإنترنت مذهل بمختلف المقاييس. ومرة أخرى، فمعظم إحصاءات الإنترنت مذهلة، ولكن ربما لا ينبغي أن تكون إحصائيات الجنس كذلك؛ فإن كل امرئ -على أيِّ حال- يتعلم في مرحلة معينة حقائق الحياة، ومنها تلك التي تتعلق بالجنس. وحتى الأشخاص الذين يختارون عدم ممارسته طوال حياتهم فإنهم لا يتجاهلونه هنا تمامًا. فالممارسات الجنسية من مختلف الأنواع

متوافرة في العالَم الافتراضي، في جميع الأماكن التي يمكن اختراق النت فيها (يُطلق باحثو التسويق الرقمي على ذلك اسم سهولة الوصول). لكني في هذا الفصل سأُقدِّم ما قد يبدو رأيًا منحرفًا؛ إذ إن المشكلة في الويب ليست وجود قدر كبير من المواد الجنسية فيها، وإنما عدم وجود ما يكفي فيها.

التربية الجنسية الافتراضية الحقيقية

دعونا نتعرَّف بدقة ماهية النشاط الجنسي في الثقافات الرقمية. بداية، يُفضَّل أن نُنحِّي جانبًا كل ما يتعلق بالفضيلة، أو فجور الإباحية، وغير ذلك من صور النشاط الجنسي. ولأن العادات والتقاليد الجنسية ستختلف اختلافًا شديدًا بين قُرَّاء هذا الكتاب؛ أود أن أُوضِّح أن ما سأقوم به هنا يُمثِّل عملًا وصفيًّا أكثر منه توجيهيًّا؛ أي إنه لا يعنيني أساسًا الحُكم على هذه الممارسات، وإنما وصفها ووصف بعض المواقف والمناقشات المختلفة التي نتجت من الممارسات الجنسية الإلكترونية. ولكن، وكما فعلت في باقي فصول هذا الكتاب، لن أحاول إخفاء آرائي الخاصة أو تحيزاتي عند اللزوم. لقد فعلت ذلك من قبلُ عندما ذكرت سابقًا مبدأً ثابتًا يُمثِّل مناقشتي. وما يبدو ادِّعاءً منحرفًا هو عدم وجود تنوع جنسي كافٍ على شبكة الإنترنت، أو ربما بدقة أكبر، هو أن الإباحية تُزاحِم صور النشاط الجنسي الأخرى المتوافرة التي قد تكون متاحة بصورة أكبر في الفضاءات الرقمية. لقد أصبح النت من دون شكٍّ أكثر وسائط التربية الجنسية شيوعًا على كوكب الأرض، لكني أتفق مع رأي المُعالِج النفسي مارتي كلاين (Marty Klein) بأن الإباحية مفيدة للتربية الجنسية الجادَّة تمامًا مثل مشاهد مطاردة السيارات في الأفلام عند تعلُّم القيادة (Klein, 2012).

إن ما كان في وقت مضى يصعب (أو يستحيل) معرفته عن الجنس، من الحقائق الطبية، أو التعارف بين الجنسين، أو التزاوج، أو تسهيل التعارف إلى بحوث الجنس الأكاديمية، والتدريب العملي على الممارسة الفعلية؛ كل ذلك وفَّرته شبكة النت

بصورة أكبر. وكانت بعض هذه المعلومات منقذة للحياة بكل ما تعنيه الكلمة، وكان بعضها الآخر يُعرِّض الحياة للخطر. والواضح أن الاتصال بالإنترنت يُوفِّر رؤية شاملة للإمكانات الجنسية في العالَم، ويجعل هذه المعلومات في المتناول مع شيء من التحفظ؛ ما يسمح للناس باستكشاف البدائل الجنسية من دون خوف.

إن الآراء الجنسية، أو بالأحرى الآراء عن الجنس المتعلقة بالعروض الإباحية والجنس الإلكتروني تصعد درجات السلم الموسيقي من قراره إلى جوابه (لماذا التشبيه بالسلم الموسيقي؟ لماذا نصعده ولا نسير عليه؟). تعرض شبكة النت وتنتقد كل ما يمكن تصوره من أشكال الجنس سياسيًّا وأخلاقيًّا وثقافيًّا، من أكثرها تحررًا إلى أشدها صرامة من الناحية الأخلاقية. ولكن، حتى أشد الآراء صرامة لا تتطابق بدقة مع الخطوط الأيديولوجية. وأيُّ تحليل جادٍّ للجنس على شبكة الويب لا بُدَّ أن يراعي بل يتجاوز مسألة الإباحية ليتناول مدى أوسع من الموضوعات، ومنها: مواقع المرافقة، ومواقع تسهيل التجارة الجنسية على الإنترنت، والحملات الإلكترونية للدفاع عن حقوق العاهرات، والدردشة التي تتناول الموضوعات الجنسية، والمحتوى الجنسي، والألعاب الجنسية، والممارسة الجنسية على شبكة الإنترنت، وغير ذلك من الممارسة الجنسية الرقمية، إلى جانب مدى واسع من التربية الجنسية الرقمية المتحفظة وغير المتحفظة التي يُقدِّمها مُعالِجون ومُعلِّمون وعاهرات.

الممارسة الجنسية الرقمية: تنوع الجنس الإلكتروني

لمصطلح «الجنس الإلكتروني» معنيان؛ أحدهما واسع، والآخر ضيق. فبمعناه الضيق يشير المصطلح إلى الأفعال الجنسية التي تمارس عن طريق وسيط تقني رقمي. والمعنى الأوسع يشير إلى الطرائق كلِّها التي يُعرَض بها الجنس في الفضاءات الرقمية، ومنها الأفعال الجنسية التي تستخدم وسيطًا رقميًّا، لكنها لا تقتصر عليه. والواضح أن هذين التعريفين يتداخلان نوعًا ما، فمشاهدة مواد إباحية إلكترونية

-مثلًا- قد يؤدي (أو لا يؤدي) إلى المظاهر المادية التي تُعَدُّ أفعالًا جنسيةً، ولكن يوجد جدل كبير يتعلق بما إذا كانت مشاهدة المواد الإباحية فعلًا جنسيًّا في حدِّ ذاته. دعونا الآن نحاول الفصل بينهما؛ لكي نستطيع التمييز بين الطرائق التي يُمثِّل بها كلٌّ من الجنس والثقافة الجنسية بعضهما بعضًا.

لتكن البداية مع الجنس الإلكتروني بمعناه الضيق، بحيث يسعى شخص، أو اثنان، أو أكثر للحصول على متعة جنسية باستخدام التواصل الرقمي. أول شيء يمكن أن يقال بهذا الخصوص هو أنه يُمثِّل -بمعنى ما- إحدى أكثر الممارسات الجنسية أمنًا؛ إذ لا توجد أيُّ فرصة لاختلاط سوائل الجسد إذا كان التفاعل الجنسي يقتصر على تبادل الصور، أو الممارسة اللفظية. فالجنس الإلكتروني بهذا المعنى يُعَدُّ (مثل ممارسة الجنس هاتفيًّا في السابق) وسيطًا آمنًا آخرَ.

يشمل الجنس الإلكتروني ممارسة الجنس باستخدام تطبيق سكايب (Skype)، وغرف الحوار (الدردشة)، والهواتف الخلوية (التي جعلت المسألة أسهل وأيسر في الحركة)، والمحتوى الجنسي، والجنس التجاري، ودمى الجنس التي يُتحكَّم فيها بين الجنسين عن طريق التواصل على شبكة الإنترنت، والألعاب الرقمية التي تُركِّز على الجنس، والجنس في «العوالم» الافتراضية. فقد كانت «الحياة الثانية» (Second Life) -مثلًا- ميدانًا حافلًا للألعاب الجنسية، وكان واحد من كل عشرة مستخدمين -على الأقل- يشارك في ممارسة فعلية فيه. إن هذه الصورة وغيرها من صور الممارسة الجنسية الرقمية هي ممارسة آمنة فيما يتعلق بالصحة الجسدية، خلافًا للصحة النفسية أو الأخلاقية التي تُعَدُّ أشد تعقيدًا. أمَّا فيروسات الحاسوب التي تنتقل من المواقع الجنسية فقضية مختلفة تمامًا من قضايا الصحة. إذن، يرى بعض الدارسين أن الجنس الإلكتروني في هذا السياق هو أمر إيجابي تمامًا يمنع الإصابة بالإيدز والأمراض التي تنتقل بممارسة الجنس، والتي قد يصبح فيها الجنس مسألة حياة أو موت.

تُستخدَم فضاءات الإنترنت أيضًا في تيسير ممارسة الجنس خارجها بطرائق عدَّة، بدءًا بمواقع المواعدة، مرورًا بمواقع طلب عروس بالبريد الإلكتروني من مختلف الدول، وانتهاءً بمواقع ممارسة الجنس التجارية الصريحة التي تُيسِّر العثور على شريك لمَن يرغب. وبالمثل، قد يؤدي النشاط على شبكة الإنترنت إلى تحرش جنسي خارجها، وإلى ملاحقة إلكترونية، وغير ذلك من الصور غير المرغوب فيها من الاهتمام الجنسي (مثلما ورد في الفصل الرابع). توجد أيضًا قضايا أكبر من ذلك، مثل كيفية إسهام بعض الأمور (مثل سهولة الوصول إلى المواد الإباحية) في تكوين العادات الجنسية خارج شبكة الإنترنت. قد يكون هذا الأمر تحديدًا مشكلة للشباب وغيرهم من محدودي الخبرة الجنسية؛ إذ لاقت ملاحظة كلاين عن الإباحية -بوصفها وسيلة فظيعة لمعرفة الممارسة الجنسية الحقيقية- صدى في كلام ممثلة المواد الإباحية السابقة نينا هارتلي (Nina Hartly) التي تعمل اليوم في إخراج هذه المواد؛ إذ تقول: «المواد الإباحية مدفوعة الأجر هي أداء تمثيلي محترف يقوم به ممثلون. وهي خيال لا يقصد به أن يكون كتاب قواعد، أو دليلًا، أو كيف تفعل كذا بوصفه قاعدة عامة. وهدفها إظهار مدى فقر التربية الجنسية لدينا في هذا البلد الذي جعل الناس يلجؤون إلى وسيط للتسلية بحثًا عن معلومات تتعلق بالجسد). وتُعزز هذه الفكرة على نحوٍ فكاهي كما في فيلم الفيديو المنتشر كالفيروس «الجنس الإباحي مقابل الجنس الحقيقي» (Porn Sex vs. Real Sex n.d.) الذي يُوضِّح الاختلافات باستخدام الخضراوات».

توحي الأدلة القولية بأن الجنس الإلكتروني قد قوَّى علاقات، وقوَّض أخرى. ففي حالة تقوية العلاقات، كان «سكايبرسكس» (SkyperSex) وما شابهه مفيدًا للأزواج الذين تفصل بينهما مسافات طويلة. وبالرغم من صعوبة الوصول إلى إحصائيات موثوق بها، فإن كثيرًا من الجنس الإلكتروني يكون بين شريكين تجمعهما علاقة جنسية حقًّا خارج شبكة الإنترنت. لنتذكَّر دائمًا أن الفصل بين عالَم الإنترنت والعالَم خارجه هو أمر متخيل، وأن المعلومات الجنسية التي يحصل عليها الأشخاص مجانًا

من الإنترنت من دون التعرُّض لإحراج محتمل قد عزَّزت حقًّا علاقات عدَّة. بالرغم من ذلك، فإنه يوجد قدر لا بأس به من الخيانة الإلكترونية؛ أي ممارسة الجنس عن طريق الإنترنت مع شخص آخر غير الشريك الذي يقيم الشخص علاقة معه، مثل علاقة زواج بشريك واحد. وكما هو الحال في جوانب الجنس الإلكتروني كلها، يرى بعض المتخصصين أن هذا قد يُوفِّر منفذًا أكثر صحة لعلاقات خارج الزواج، أو العلاقات المتحررة من الالتزامات (نظرية صمام الأمان)، في حين يرى آخرون أن الخيانة هي خيانة، وأنها تضر دائمًا بالعلاقة.

ليس صعبًا إيجاد أحداث تثبت القولين، والأمر ببساطة يتوقف على أفراد معينين في علاقات معينة. أمَّا معظم الأدلة فتثبت الجانب السلبي. فالجنس الإباحي -مثلًا- يؤدي إلى تكوُّن توقعات جسدية وسلوكية غير واقعية لدى الأفراد في المواقف الحقيقية؛ ما يتسبَّب في إحباط كبير وعجز جنسي خارج شبكة الإنترنت (Lambert et al. 2012). وقد برزت هذه القضية في وسائل الإعلام الرئيسة على نحوٍ تفصيلي في فيلم جوزيف غوردون ـ ليفيت (Joseph Gordon-Levitt) «دون جوان». فبعيدًا عن المسألة الأخلاقية، يرى الفيلم أن مشكلة العروض الإباحية تكمن في أنها تُفضي إلى تجارب جنسية فاشلة في العالَم الحقيقي، وأن أفضل التجارب الجنسية في هذا العالَم لا تشبه الجنس الآلي الموجود في العروض الإباحية قليلًا أو كثيرًا.

تعميم الإباحية

إن أكثر ما نال اهتمام الباحثين والعامة معًا من مسألة الجنس الإلكتروني هو دور شبكة الويب في جعل الإباحية تيارًا رئيسًا؛ أي نقل العروض الإباحية من أطراف المجتمع الخفية لتكون قريبة من المركز. فقد صار معتادًا في البرامج الحوارية والتمثيليات الفكاهية وبرامج الواقع وغير ذلك من ألوان العروض الترفيهية في سياق التيار الرئيس؛ ذكر إشارات إلى استخدام العروض الإباحية. وفي السنوات

الأخيرة، صار نجوم العروض الإباحية يندمجون مع غيرهم من المشاهير على نحوٍ يشير بوضوح إلى زيادة تقبُّلهم في المجتمع. وقد أشار أحد النقَّاد إلى مسؤولية ثلاثة عوامل عن هذا الأمر، هي: سهولة الوصول، ورخص الثمن، وإخفاء الهوية (Cooper cited in Nayar, 2008). والحقيقة أنه يصعب قياس أثر ذلك في العلاقات الجنسية بعد عملية المشاهدة؛ إذ يوحي أكبر مسح جنسي أُجري على الإطلاق، ولُخِّص في كتاب ثري إحصائيًّا، لكنه مُوجَّه توجيهًا غير صحيح من الناحية التأويلية، هو كتاب «مليار فكرة شريرة» (A Billion Wicked Thoughts)ـــ يوحي بأن معظم عمليات البحث عن عروض إباحية تقع غالبًا في نطاق صغير نسبيًّا من الممارسات الجنسية التقليدية الهادئة (Ogas and Gaddam, 2011). بالرغم من ذلك، يوجد ملايين الأشخاص الذين لم يمارسوا هذه العروض الإباحية على أرض الواقع، لكنهم فعلوا ذلك على شبكة النت. وممَّا لا شكَّ فيه أن لهذا الأمر مجموعة من التأثيرات الجديدة. فبعض حالات البحث قانونية، وبعضها الآخر غير قانوني، أو مبهم من حيث الموقف القانوني. ومثلما ذكرنا من قبلُ، فإن مراقبة شبكة النت أمر صعب، وقد صار الباحثون عن العروض الإباحية خبراء في المراوغة في محاولات تضييق الوصول إليها. ففي الولايات المتحدة، يظل مقياس العروض الجنسية القانونية مرتبطًا بمعايير محلية، وهذا مفهوم لم يعد له معنى بسبب قابلية محتوى الويب للسفر على المستوى الوطني، وخارج حدود الوطن. أمَّا دوليًّا، فلم تُحقِّق محاولات الرقابة على العروض الجنسية الإلكترونية نجاحًا كبيرًا؛ لأن الرقباء في المجتمعات غير المنفتحة يُركِّزون على الرقابة السياسية أكثر من الرقابة الثقافية عندما تشح موارد الرقابة. وحتى الدول التي لديها أشد القوانين صرامة تجاه العروض الجنسية، والتي تحاول جاهدة احتواءها، وجدت أنه من المستحيل منع مواطنيها من الوصول إلى هذه العروض الإباحية؛ نظرًا إلى كثرة الطرائق الملتوية المتوافرة في العالَم الرقمي.

وفي هذا السياق، يجب تذكُّر أن العروض الإباحية بدأت مع أول صور التمثيل الإنساني، وأن الثقافات التاريخية الكبرى كلها كانت تضم تمثيلًا تصويريًّا للجنس

يمكن عَدُّهُ عرضاً إباحيًّا. وفي العصور الحديثة، ظهرت الأفلام الإباحية إلى جانب الأفلام نفسها تقريبًا. وكل وسيط جديد (التلفاز، والفيديو، وما إلى ذلك) زاد كَمَّ العروض الإباحية، ومدى توافرها. وفيما يتعلق بنطاق سهولة الوصول، فقد أسهمت شبكة الويب في النمو الهائل لكَمِّ العروض الإباحية المتوافرة ونوعها؛ ما أثَّر في صناعة العروض الإباحية. وهذا يُمثِّل حقيقة تنطوي على إشكالية، مفادها أن الشباب غير المهيأ لوضع الجنس الذي شاهده على الإنترنت في سياق اجتماعي، يبدأ التعامل معه في سن صغيرة لا تنفك تقل (Papadoupoulus n.d.). وقد حاولت بعض مواقع الإنترنت معالجة هذا الأمر بتقديم تربية جنسية مسؤولة اجتماعيًّا للشباب، مثل موقع (Scarleteen: Sex Ed for the real World n.d.). ولا نعرف بعدُ أثر تسهيل الوصول إلى العروض الإباحية في أكثر الفئات تأثُّرًا بها على الأرجح، وهم المراهقون والشباب الذين يستكشفون هوياتهم الجنسية؛ إذ يكشف البحث في الموضوع عن مزيج معقد من التأثير في الاتجاهات الجنسية، وصورة الجسد، ومفهوم الذات، والتنمية الاجتماعية، مع وجود أدلة كافية تشير حقًّا إلى جوانب قلق واضح يبديه حيالها الوالدان، والمُعلِّمون، والعاملون في مجال الصحة، ومرشدو الشباب النفسيون، ويحذرون منها (Owens etal. 2012) وما تزال قضية «إدمان العروض الإباحية» في مختلف المراحل العمرية تجذب الاهتمام حتى تثبت بالوثائق أنها مشكلة اجتماعية خطرة (Wilson n.d.).

لقد مثَّلت العروض الإباحية قضية اجتماعية خلافية كبرى على شبكة النت، ثم زادت حدَّتها بعد ما انتقلت من الهوامش إلى التيار الرئيس. أمَّا أطراف الخلاف في هذه القضية فهم من أصناف مختلفة. فمن جانب، لدينا الجماعات المحافظة التي تهاجم الإباحية على أسس دينية وأخلاقية ومعها -في تحالف غير ثابت القواعد- بعض جماعات الحركة النسوية التي ترى في العروض الإباحية استمرارًا لتراث تحقير النساء، وانتهاكًا لحقوق النساء المدنية. وبالمقابل، لدينا ألوان مختلفة من طيف المتحررين اجتماعيًّا، منها النسويات المؤيدات للجنس المهتمات بنشر تحرر

الممارسات الجنسية الأنثوية والمثلية، وحماية حقوق العنصر الأنثوي من العمالة الجنسية (الاسم غير المهين للمومسات، وعاملات الهاتف الجنسي، ومؤديات عروض التعري، وما إلى ذلك) (Li, 2000; Nayar, 2008; Rajagopal and Bojin, 2004).

يُذكَر أن كثيرًا من مناهضي جهود التضييق على العروض الإباحية ينتقدونها أحيانًا بصور مختلفة؛ فهم يعترفون بأن شبكة النت تحوي مواد جنسية مُنفِّرة جدًّا، ولا سيما تلك التي تُمثِّل الجنس العنيف، والجنس الإكراهي، لكنهم يدعون إلى نشر التربية الجنسية، لا الرقابة، ويرون أن هذا أفضل سبيل للقضاء على صور التمثيل الجنسي المُنفِّرة اجتماعيًّا أو المهينة. وفي هذا السياق، توجد صور معينة من العروض الإباحية، ولا سيما تلك المتعلقة بالأطفال، تلقى رفضًا عالميًّا مطلقًا، فضلًا عن تجريمها. يُذكَر أيضًا أن العروض الإباحية هي سلعة شديدة العنصرية. ففي مواقع إباحية كثيرة، لا تشير كلمة «آسيوي» إلى موقع جغرافي أو ثقافي، وإنما تشير إلى فئة تعني دُمى شرقية مذعنة، وبنات مدارس جميلات خليعات، وسيدات كالتنانين عنيفات ومسيطرات جنسيًّا.

توجد أيضًا فئة «الأجناس المختلطة» في العروض الجنسية التي تُركِّز على الخيالات التاريخية للرجال الملونين وفحولتهم الجنسية، فضلًا عن الفئات العرقية الجنسية، مثل: الهنود، واللاتينيين، والسود. أمَّا الفئة الرئيسة المفترضة فتُمثِّلها النساء البيض؛ إذ لا يعاملن بوصفهن عرقًا. وتنقسم هذه الفئة انقسامًا داخليًّا بحسب لون الشعر، أو حجم النهدين، أو الانحناءات، أو التضاريس الجنسية. وأمَّا الفئة المثيرة للاهتمام، وهي فئة «الودودين مع الإناث» التي تظهر على بعض المواقع (يقصد بها زيادة صفة الرومانسية والاعتدال)، فتنطوي على مفارقة تكشف عن أن كثيرًا من مواد هذه المواقع غير ودودة مع الإناث. وتوجد أدلة عامة تربط بين استخدام العروض الإباحية والتحيز الجنسي بين الذكور ذوي الميول الجنسية للإناث (Hald, Malamuth and Lange 2013).

لا شكَّ في أن شبكة الإنترنت أسهمت في نقل العروض الإباحية من ظل الأطراف إلى البيوت، وأنها أعادت تكوين الاتجاهات نحو النزوع الجنسي في مدَّة قصيرة، حتى إنها لم تجلب الاستهلاك وحده إلى البيت، وإنما حملت إليها إنتاج العروض الإباحية. يقول تشك كلوسترمان (Chuck Klosterman) عن ذلك بنبرة لاذعة لكنها كاشفة:

«يعلم الجميع أن الإنترنت يُغيِّر حياتنا، وقد علموا ذلك أساسًا لأن شخصًا ما في وسائط الاتصال يقول هذه الجملة بحذافيرها مع شروق شمس كل يوم منذ عام 1993م. لكن يبدو أن الشيء الرئيس الذي أنجزه الإنترنت هو تطبيع عروض الهواة الجنسية. فليس من مُسوِّغ لعدد العراة على الإنترنت، ومن الواضح (نعم من الواضح) أنهم لا يفعلون ذلك من أجل المال، فأين كان هؤلاء منذ (15) عامًا؟ هل كانت ملايين النساء عام 1986م يلتفتن إلى أزواجهن، وكلٌّ منهن تقول لزوجها: أحب أن أنشر صورتي في وضع إباحي لإثارة الرجال جنسيًا، ولكن -للأسف- لا يوجد وسيط إعلامي يتيح هذا النوع من الترفيه. لذلك فأنا مضطرة أن أجلس هنا، وأعاود مشاهدة مسلسل فالكون كريست؟» (Klosterman, 2004 109–110).

بالرغم من هذا الطرح الساخر، فإن كلوسترمان أثار تساؤلين مهمين: هل الوسيط هو الذي أنشأ الرسالة؟ هل الإمكانية الفنية لتحميل عروض جنسية من صنع الهواة تستثير استجابة لم تكن لتحدث من دونها؟ يشير كلوسترمان بذكاء إلى أن الرد بالإيجاب، وأن لهذا الزعم تبعات على كل إنتاج «اصنعه بنفسك DIY» على شبكة الويب كلها في مواقع، مثل: يوتيوب، وفيميو (Vimeo).

وفي هذا السياق، تنظر بعض القوى المناهضة للعروض الإباحية إلى عملية انتقالها إلى التيار الرئيس بوصفه إحدى العلامات الكثيرة على تدني القيم الأخلاقية في سياق الثقافة الوطنية التي ينتمون إليها (تأتي هذه النظرة غالبًا من إحدى صور الأصولية الدينية)، وينظر إليها آخرون بوصفها تعميمًا لممارسات تشييء النساء وتحقيرهن واستغلالهن (بحسب أحد فروع الحركة النسوية). تشير النسويات

الموصوفات بمناهضات العروض الإباحية إلى ما يصفنه بمستوى عالٍ من العنف الصريح المُوجَّه إلى النساء في العروض الإباحية، ويقلن إن اللاتي يشتركن في هذه الصناعة يفعلن ذلك مكرهات، أو بسبب تدني قيمة الذات لديهن (يُعزى السبب غالبًا إلى حدوث اعتداء جنسي عليهن في مرحلة مبكرة). يرى هؤلاء الناس بعد جهاد سنين عدَّة لتقييد العروض الإباحية، أو القضاء عليها، ومقاومة تمددها على الإنترنت، وما يترتب على ذلك من تآكل المحرمات الاجتماعية المتعلقة بالعروض الإباحية؛ يرون أن هذا الامتداد أمر مأساوي.

وعلى الجانب الآخر، نجد المتحررين، ومنهم المتحررون الإلكترونيون، يعارضون أيَّ تقييد للعروض الإباحية، وذلك على أساس حرية التعبير العامة. أمَّا النسويات المعروفات بمؤيدات الجنس، فيطالبن غالبًا بإضفاء الشرعية على العروض الإباحية، وجعل القيود عليها في حدود دنيا، على أساس أن تجريم العمل الجنسي يضع العاملين بالجنس (وأغلبهم نساء) في خطر استغلال أكبر ممَّا يحدث في ظل «الشرعنة». وهن ينظرن إلى العروض الإباحية على الإنترنت بوصفها أكثر أنواع العمل الجنسي أمانًا؛ لاستحالة تبادل الإفرازات الجسمية، أو المواجهة العنيفة في الفضاءات الافتراضية (بالرغم من أن هذا لا يشمل قضية الإكراه في الأداء الجنسي). ويُشِرْنَ أيضًا إلى تزايد أعداد النساء في الوظائف التنفيذية في صناعة العروض الإباحية، ويعتقدن أن معظم النساء العاملات في العروض الإباحية يفعلن ذلك بإرادتهن، وبدرجة كبيرة من الاستقلالية.

بوجه عام، تشير الدراسات القائمة على الأدلة إلى أن كلا الطرفين أصاب شيئًا من الحقيقة؛ فالعروض الإباحية العنيفة ظاهرة مفزعة لا مُسوِّغ لها، ويوجد دليل على أن مشاهدة العروض الإباحية يمكن أن تزيد العدوانية الجنسية (Owens et al. 2012) وبالمقابل، تشير الإحصائيات إلى أن العنف ليس سائدًا بالدرجة التي يدَّعيها بعض الدارسين، بل إنه يتراجع في نسبته المئوية من مجمل

الإنتاج الإباحي، جزئيًّا لزيادة عدد النساء اللاتي تبوَّأْنَ مراكز السلطة في صناعة العروض الإباحية، وزيادة عدد النساء المشاهدات. غير أن العنف بالإكراه في العروض الإباحية ما زال همًّا ثقيلاً، ويرى بعض النشطاء من مناهضي العروض الإباحية أن المجال كله صورة من صور التشييئ العنيف للنساء و/ أو انتهاك للحقوق المدنية للنساء (MacKinnon and Dworkin, 1988). وفي الوقت نفسه، توجد شهادة كبيرة من العاملين في مجال الجنس تؤيد الانضمام الطوعي إلى هذه الصناعة، وتدعم تصاعد القوة النسائية فيها، وتُؤكِّد تحسُّن ظروف الأمن بسبب تحويل قدر كبير من العمل الجنسي إلى العالَم الافتراضي، بما في لك الكَمُّ الكبير من الإنتاج الشخصي للنساء. ولكن -مثلما سنرى في القسم التالي- الأثر الأسوأ للنمو الضخم في صناعة العروض الإباحية يقع على أقل الفئات حماية من العاملين في الجنس، الذين يُكرَهون على العبودية الجنسية.

تجارة الجنس الرقمية

تتفق أطراف الجدل حول الجنس الإلكتروني جميعًا على أن نوع العنف المرفوض تمامًا، الذي يوجد في العروض الإباحية، هو إكراه النساء والبنات والأولاد على أعمال الجنس الإلكتروني داخل الشبكة وخارجها، والاتِّجار بهم في هذا المجال. ولا شكَّ في أن هذا هو أقبح أبعاد التقنية وأكثرها استغلالًا: أي استخدامها في تيسير التجارة الجنسية وغيرها من صور العنف المُوجَّه إلى النساء والبنات والأولاد. صحيح أن الاتِّجار بالنساء والبنات والأولاد يسبق ظهور تقنيات الاتصالات الجديدة، بيد أن الكثيرين يرون أن الوسائط الجديدة أدَّت دورًا في توسيع التجارة في العقود القريبة، ولا شكَّ في أن تقنيات المعلومات والاتصالات غيَّرت طبيعة هذه التجارة. فقد مثَّلت المتاجرة الجنسية ظاهرة تجاوزت الحدود الوطنية، وكانت غالبًا من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية؛ ما فاقم من حدَّة عدم المساواة الاقتصادية بسبب قوى العولمة،

ثم زاد من كثافة هذه التجارة. والحقيقة أن المرحلة الحالية من العولمة نفسها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على تقنيات الوسائط الجديدة (Kee, 2005).

من جانب آخر، عملت الهواتف الخلوية، وأجهزة جي بي إس (GPS)، والبريد الإلكتروني على تسهيل وسائل الاتصال بين التجار، وسمحت لهم بتطوير طرائق تتبُّع ضحاياهم. فمواقع «طلب العرائس بالبريد الإلكتروني»، وهي قانونية، تَعِدُ عملاءها بنساء وفتيات طيِّعات مستعدات للزواج. وهي على السطح تُمثِّل صورًا ناعمةً من التجارة الجنسية، لكنها تكون غالبًا غطاءً لجوهر نشاط التجارة الجنسية؛ فكثير من مواقع الشبكة المتخفية غير القانونية لجأت إلى استخدام عالَم رقمي في الترويج لتجارةٍ سلعتها الجنسية النساء والبنات والصبية. وعودًا على بدء، فإن إخفاء الهوية على شبكة النت يؤدي دورًا حاسمًا في هذه القضية؛ إذ يتيح للتجار والمشترين عقد الأعمال التجارية على شبكة النت بالحدِّ الأدنى من مخاطرة الكشف عن هوياتهم. وإلى جانب شبكات التجارة الجنسية المنظمة القديمة، فقد نشأت شبكات التجارة الجنسية الفردية التي يُنظِّم فيها الأفراد نقل المبيع من النساء والبنات والصبية.

لا شكَّ في أن الزيادة الضخمة في حجم العروض الجنسية، الذي يُمثِّله الانتقال بالعروض الإباحية إلى التيار الرئيس، قد زاد زيادة كبيرة جدًّا نتيجة الطلب على عمَّال الجنس، وأن عددًا كبيرًا من العمَّال الجُدد في المجال الإباحي هم أشخاص يُمثِّلون ضحايا المتاجرة الجنسية. يقول بعض الدارسين إن المتاجرة الجنسية بالصور هي الأقل خطرًا، والأقل عنفًا صريحًا بين صور المتاجرة الجنسية، ولكن نشر الصور الإباحية يتبعه غالبًا إمكانية فعل أنشطة جسدية استغلالية.

لم يمرَّ التوسُّع العام في التجارة الجنسية ومظاهرها الرقمية المتعددة من دون معارضة؛ فإن تقنيات الاتصال الرقمي نفسها التي استخدمها التجار استُخدِمت في محاربتهم ومحاربة تجارتهم. ويمكن للمنظمات المناهضة للتجارة الجنسية استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات في تتبُّع التجار، وتحديد أماكن مَن تاجروا بهم. فقد

ثبتت أهمية المعلومات المستقاة من الإنترنت عن الضحايا والضحايا المحتملين، ولا سيما في حالات العزلة التي يجد ضحايا هذه التجارة فيها أنفسهم. وقد مثَّلت الهواتف الخلوية المتصلة بالإنترنت أداة مفيدة في هذه المواقف بوجه خاص.

وفي السياق نفسه، فقد استفادت الحكومات من شبكة الويب على مختلف المستويات (بدءًا بالأمم المتحدة، وانتهاءً بجماعات الحراسة في الأحياء) في الحصول على معلومات مفيدة عن التجارة الجنسية. أمَّا أهم ما أُنجِز من أعمال في هذه القضايا فقامت به المنظمات غير الحكومية، وجماعات الحركة الاجتماعية؛ إذ وجدت المنظمات غير الحكومية في الويب مصدرًا كبيرًا لنشر معلومات عن مخاطر التجارة الجنسية العامة، وتنظيم حملات مناهضة للتجارة الجنسية، والضغط لإحداث تغييرات سياسية حكومية تسمح بكشف مناطق تجارة معينة وتجار معينين، ونشر المعرفة عمَّا يتاح من عون لضحايا هذه التجارة من النساء والبنات والصبية. حتى إن إحدى أقوى الجماعات التي تكافح تجارة الجنس على شبكة النت، وهي جماعة «استردوا التقنية (Take Back the Tech)» خلصت إلى عدم وجود دليل قاطع على أن التقنية الرقمية جعلت مسار التجارة الجنسية سيئًا، وأن اتساع نطاق صناعة العروض الإباحية في فضاءات الإنترنت هو الذي زاد حجم الطلب عليها. وعلى كل حال، فإن تجارة الجنس ما تزال تُمثِّل مأساة دولية ذات أبعاد ملحمية يتعيَّن محاربتها بمختلف الوسائل المتوافرة داخل شبكة النت وخارجها.

ما مدى غرابة الفضاءات الإلكترونية؟ الممارسات الجنسية البديلة في الفضاءات الإلكترونية

كما هو حال كل فئة من فئات الأقلية الثقافية، فإن قصة الأقليات الجنسية في الثقافة الرقمية تحوي أمورًا وقضايا متنوعة مختلفة. فقد وجد المثليون، والسحاقيات، ومَن ينجذبون إلى الجنسين معًا، والمتحولون جنسيًّا، والشواذ (يُصنَّفون غالبًا

ضمن فئة واحدة تُمثِّلها كلمة مكوَّنة من الحرف الأول لكل كلمة فيها بالإنجليزية، هي (LGBTQ))، وغيرهم من ممارسي الجنس المهمشين؛ أن المساحات الجديدة مهمة للعلاقات السرية، وتكوين مجتمعات منفتحة على شبكة الإنترنت. وفي الوقت نفسه، فإن إخفاء الهوية، وعدم وجود موانع للحديث على الشبكة، أطلق فيضًا هائلًا من الكلام الذي يحمل معاني رهاب المثليين، والذي يؤيد العلاقة الطبيعية بين الرجال والنساء، ولا شيء غيرها (مواقف وممارسات تفترض أن علاقة الرجل بالمرأة هي العلاقة الوحيدة المقبولة).

إن توفير شبكة الويب مساحات آمنة فيها شيء من إخفاء الهوية يسمح لبعض الأشخاص الذين لا يلاقي توجههم الجنسي ترحيبًا، أو يعامل بعداء واضح في مجتمعاتهم الحقيقية، بأن يجد بعضهم بعضًا، ويتشاركوا المعرفة، ويتبادلوا التعزيز والتشجيع والمؤازرة. وعلى هذا، يمكن التنصُّل من الثقافات التي تُضيِّق كثيرًا على مسألة الرغبة المثلية – تحديدًا– باستخدام المعلومات المتوافرة على شبكة الإنترنت؛ إذ إن وجود معلومة مفادها أنه «يوجد أشخاص مثلي» يمنح الشاذ طمأنينة لا حدود لها. وقد شهد كثير من أعضاء جماعات الأقلية الجنسية أن مجتمعات الإنترنت أنقذت حياتهم حقًّا. ومرة أخرى، فعلى مستوى التأييد المنظم للشذوذ، فإن شبكة الويب تُوفِّر مساحات آمنة للاتفاق والاتصال. وقد وجدت جماعات الحركة الاجتماعية لفئات الشواذ المختلفة (LGBTQ) في الويب أداة فاعلة، ولا سيما في العمل في مختلف الدول، وداخل دول معينة أيضًا (King 2012; Phillips and ORiordan, 2007; Pullen and Cooper, 2010).

وبالمقابل، فإن مسألة إخفاء الهوية نفسها، والسماح بحرية الحوار التي وفَّرت مساحات مفتوحة للتواصل بين فئات الشواذ المختلفة، وفَّرت أيضًا غطاءً آمنًا لإطلاق مجموعة من صور الهجوم على المثليين، وترسيخ خطاب الكراهية الذي يبثه الداعون إلى عدم قبول أيِّ علاقة إلا بين الرجل والمرأة فقط. فأصبح اتهام شخص

ما أنه شاذ جنسيًّا يُمثِّل إحدى أكثر صور «البلطجة» الإلكترونية شيوعًا؛ ما سبَّب ألمًا شديدًا لكثير من الشباب، ورجح أنه أسهم في ارتفاع معدل انتحار صغار السن من المثليين (يرى80% من الشباب الذين أُجريت معهم مقابلات شخصية أنهم أكثر عُرضة «للبلطجة» على شبكة الإنترنت من تعرُّضهم لها وجهًا لوجه). والحقيقة أن الكثير من مجتمعات الإنترنت -ربما أشدها وضوحًا مجتمعات الألعاب- تزخر بالإهانات الناجمة عن رهاب المثليين. وقد صار تعبير «المثلي» الذي جرى تبنيه بوصفه مصطلحًا إيجابيًّا يصف الأفراد الذين يغرمون بأشخاص الجنس نفسه، سُبَّة تُستخدَم كثيرًا باللغة الإنجليزية في مجتمعات الشباب. ويزعم الكثير من مستخدمي التعبير أن عبارة مثل: «هذا مثلي جدًّا» لا تشير حقًّا إلى المثليين. ولكن، حتى لو كان هذا الزعم صادقًا فإنه لا يُقلِّل من حقيقة أن هذا التعبير -بالنسبة إلى معظم المافعين عن المثليين والأفكار والمواقف و/ أو الممارسات الكريهة- يظل موجودًا ضمنًا في هذا الاستخدام المنتشر في كل مكان. واليوم، توجد حملات منظمة تكافح استخدام (وإساءة استخدام) هذا التعبير، من بينها حملات على شبكة الإنترنت (Think B4 You Speak n.d.).

ومع تمثيل الفئات المهشمة الأخرى، فقد كانت جماعات مراقبة وسائل الإعلام بطيئة -نوعًا ما- في اللحاق بتراجع قولبة الأقليات والتمثيل المسيء للأقليات الجنسية في الوسائط الجديدة؛ إذ لم تَعقد جماعة (LGBTQ) المشهورة لفئات الشواذ المختلفة، وائتلاف المثليين والسحاقيات المناهض للتمييز (GLAAD :Gay Lesbian Alliance Against Discrimination) -مثلًا- مؤتمرها الأول (الثري بالمعلومات) عن إزعاج المعادين للمثليين في الثقافات الرقمية إلا عام 2009م (لا يزال الموقع الإلكتروني للائتلاف (GLAAD) الذي يشمل كل شيء آخر، يفتقر إلى التصنيف المتعلق بالوسائط الرقمية، بالرغم من وجود مدير مسؤول لديه عن هذا المجال). قدَّم المؤتمر نموذجًا للإستراتيجية متعددة الجوانب للتعامل مع هذه القضايا؛ إذ تحدَّث ممثلو شركات الألعاب الرقمية المدعوون عن وجود رهاب المثليين في الألعاب،

وإمكانات إيجاد عدد أكبر من الشخصيات المثلية في الألعاب ومُعوِّقات ذلك، وعن جهودهم في تناول خطاب كراهية الشواذ وتوجيهه في مجتمعات الألعاب الإلكترونية. وقد تحدَّث كثير من العاملين في مهن تقنية المعلومات والاتصالات عن مواقف في الصناعة وطرائق التدخل لجلب عدد أكبر من المثليين إلى إنتاج الوسائط الجديدة، ومثليين أكثر خارج الغرف الصغيرة. وتناول النقاش في المؤتمر تحسين المُناخ في مهن فئات الشواذ المختلفة ومستخدمي الوسائط الجديدة. أخيرًا، عرض كثير من أعضاء الائتلاف لمسؤولية مستخدمي الوسائط الجديدة عن الإعلان و/ أو الإبلاغ عن المشاركين في الإساءة إلى المثليين في الثقافات الرقمية.

والواضح أنه يوجد الكثير ممَّا يتعيَّن عمله لجعل الفضاءات الإلكترونية صديقة لفئات الشواذ المختلفة، ولا يمكن لأحد اليوم ادِّعاء أنه لم تُحدَّد المشكلة، ولم توضع حلول لها. ولعل إحدى علامات ما سيحدث مستقبلًا إضافة متحوِّل جنسيًّا - في الآونة الأخيرة- إلى ملابس شخصيات «بوكيمون» في اللعبة اليابانية المشهورة.

وفي الواقع، لا ينبغي للمرء دائمًا أن يحرص على عدم استنتاج الكثير من مثال واحد؛ لأن دراسة حالة النشاط الجنسي تُقدِّم بعض التنويهات الموحية لكيفية عمل المعرفة الرقمية. حتى إن المؤيدين لإحدى أقوى جماعات مكافحة العنف المُوجَّه إلى النساء عامة، والعنف الإلكتروني بوجه خاص، يرون صورة معقدة تظهر فيها الثقافة الرقمية عدوًّا ومعاونًا في الوقت نفسه:

«إن تكرار صور جديدة من تقنية المعلومات والاتصالات، أو تضخيمها، أو زعزعة علاقة القوة فيها يعتمد على كيفية مراقبة تطورها وخطابها عن كثب. وهذا يتطلَّب أن نفهم أولًا ما تعيه التقنية الرقمية، ثم نبحث في تأثيرها في المجتمع تبعًا لخطوط الخطاب السياسي المتعددة والمتغيرة. لقد بدأت العملية حقًّا؛ فالنسويات والداعين إلى حقوق المرأة «استردوا التقنية» بوعي وتعمد، وغيَّروا على نحوٍ ثابت ماهية التقنية وما تعنيه» (Kee, 2005.) وما يثير دهشتي بالدقة نفسها ليس فقط الطريق

المباشر لتناول قضايا استكشاف الجنس واستغلال الجنس على شبكة الإنترنت، وإنما تناول مختلف القضايا الاجتماعية التي تتأثر بالويب. وعلى هذا، يلزمنا إدراك أن التقنية هي أدوات يمكن استخدامها بطرائق متعددة مختلفة، ومقاومة الخطابات المؤيدة للتقنية، وتلك المناهضة لها التي تنظر إلى تأثيرها بوصفها مسألة آلية، أو تُحدِّدها التقنية وحدها. وبدلًا من ذلك يتعيَّن إيجاد طرائق مناسبة لاستخدام التقنية والوسائط الجديدة في الدفاع عن القيم التي تعتقد أنها ستجعل العالَم أفضل.